

مجادلة الإختلاف بين الحق والباطل أو بين المعروف والمنكر

الدكتور عبد الرزاق طوقان

كلية الهندسة

جامعة النجاح الوطنية

فلسطين 2012

ظاهرة الاختلاف في خلق الله ظاهرة كونية مرئية في اختلاف الليل والنهار والألسنة والألوان وغيرها أرادها الحق سبحانه رحمة للعالمين:

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَآ تَسْمَعُونَ (71) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَوْ لَآ تُبْصِرُونَ (72) القصص.

وبالمقابل فإن الإنسان في محاكاته خلق الله سبحانه صنع نوعين من الخلاف. خلاف تكاملي فيه مراعاة ورحمة للخلق شابه فيه خلق الله وخلاف تنازعي غير فيه خلق الله فخلق الفرقة والإقتتال والفساد خلافا لما أراده الله سبحانه لخليفته الإنسان من سلام يحسن من خلاله أداء مهمته في عمارة الأرض.

وجاءت رسالات الله سبحانه مؤكدة لسنن الله في الخلق والفطرة التي جبل عليها الإنسان حنيفا للحق لتضع ضوابط كلامية وسننية وفطرية لتوجيه الاختلاف ليكون تكامليا لا تنازعي جاعلة الجدل الذي من خلاله يمكن حسم الخلاف التنازعي لصالح الخلاف التكاملي بالعلم والهدى والكتاب المنير.

يهدف هذا البحث إلى بيان ما يثمره العلم وقواعد الهدى والواقع المنير من توحيد الرؤيا لجمع الجهود للبناء بديلا عن الفرقة والاختلاف التنازعي وأثر ذلك في توحيد دول عانت صراعات آلاف السنين من خلال استقرار صناعة الإنسان بعين واحدة في سعيها لتحقيق رؤيا تنويرية عالمية ليضيف عينا أخرى تبصر مفاهيم من كتاب الله سبحانه للعلم والهدى والكتاب المنير مصدقة لما توصل له الإنسان بل ومهيمنة عليه تساعد على تحقيق الاختلاف التكاملي وتنقية الأفكار من الاختلاف التنازعي لتكون للحضارة التنويرية نور على نور (نور الرسالة على نور العلم).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (59) النساء.

وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (64) النحل.

هناك ظاهرتان للإختلاف. ظاهرة خلقها الله تكاملية واستفاد منها الإنسان في خلافته في الأرض، وظاهرة أخرى أوجدها الإنسان تنازعية.

أولاً: الظاهرة التكاملية: أوجدها رحمن رحيم رحمة للعالمين. ظاهرة كونية مرئية في كل واقع بينها الحق سبحانه نسا في العديد من الآيات منها:

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164) البقرة

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَأْنِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ (22) الروم

وفي بيان كون هذا الخلاف تكاملياً من حيث أن النهار للعمل الذي لا يمكن تمامه من غير نور (ضياء) والليل للسكن ضرب الله سبحانه مثلاً مبيناً أهمية هذا الإختلاف التكاملي في تيسير حياة العالمين:

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَا تَسْمَعُونَ (71) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَوْ لَا تُبْصِرُونَ (72) القصص.

هذه الظاهرة الكونية هي من خلق الله وتمثل سنة من سنن الله سبحانه يمكن فهم خلق الإنسان على نفس السياق فالحق يقول: أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَّانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (82) النساء.

فمفاهيم القرآن مفاهيم تكاملية تصلح لكل زمان ومكان وكم وكيف. من هذا المنظور يمكن أن نفهم من قول الحق: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ

خَيْرٌ (13) الحجرات) أن خلق الناس يكون في انسجام مع خلق الكون في كون الإختلاف بين الشعوب والقبائل إختلاف تكاملي. فختام الآية عليم خير يبين لنا أن هذا التنوع يكون تنوع تكامل بالعلم والخبرة. فالعلم يدعو إلى التوحيد أي إلى المفاهيم العالمية التوحيدية لذلك قيل: إذا كان التوحيد علما فالعلم لا يكون علما إلا إذا كان توحيدا. فقول الحق: فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ... (19) محمد يقتضي أن الإيمان (التوحيد) إنما يؤسس على العلم والعكس صحيح. فمن لم ينتفع بالعلم انتفع بالخبرة التي تبين فرق الإختلاف التكاملي حين يستفيد كل إنسان من خبرة الآخر بديلا للخلاف التنازعي الذي يحاول فيه كل فرد إلغاء الآخر. وكمثل على ذلك نرى الفرق الهائل بين العرب حين كانوا قبائل وشعوب متناحرة ومتقاتلة وبينها حين تكاملت تحت مظلة الإسلام الحق الذي رفض فيه خليفة المسلمين عمر ابن الخطاب الصلاة في كنيسة القيامة حفاظا منه (رحمه الله) على الإبقاء على الكنيسة معبدا للنصارى مخافة أن يحولها المسلمون من بعده لتصبح مسجدا (لخبرته الحياتية التي بدأت بالإختلاف التنازعي وتهذبت بدين الحق لتشكل إختلاف تكاملي). وبقيت القدس إلى اليوم بمعابدها وكنائسها ومساجدها كتابا منيرا يمثل التعايش التكاملي بين أصحاب الدين السماوي الواحد من أتباع التوراة والإنجيل والقرآن. هذا التعايش التكاملي أوجده الدين الكامل (اليوم أكملت لكم دينكم... (3) المائدة) المحيط بمفاهيمه المتنوعة من نصه الثابت على كافة الشرائع والمناهج منذ خلق الإنسان إلى قيام الساعة: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (28) الفتح.

ثانيا: الخلاف التنازعي: ورد الفعل نزع ومشتقاته في كتاب الله سبحانه 20 مرة. وقد ارتبط الفعل نزع بالفشل وذهاب الريح (أي القوة التي يدعم بها الله المؤمنين في النصر على أعدائهم وتيسير طيبتاتهم) (...وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (46) الأنفال.

والملفت للنظر ورود لفظ حزب ومشتقاته 20 مرة في كتاب الله سبحانه بتكرار

يمثل تكرار نزع ومشتقاته. وفي ذلك تحذير من دور الكثير من الأحزاب في زرع الخلاف التنازعي ومحاولة كل حزب إلغاء الحزب الآخر. وقد وردت الأحزاب بالجمع 11 مرة أغلبها تم ذكرها بالسوء:

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (37) مريم
فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الْيَمِّ (65) الزخرف
أما حزب بالمفرد فوردت 8 مرات. 3 مرات في وصف حزب الله:

وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (56) المائدة
لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا
آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ
بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ
وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (22) المجادلة

وثلاث مرات في وصف حزب الشيطان:
إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ
السَّعِيرِ (6) فاطر

اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ
الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (19) المجادلة

ومرتان في بيان مواصفات الحزب ودوره في الغالب في تقطيع الأمر والتشيع:

فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (53) المؤمنون
مَنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (32) الروم

والملفت للنظر ورود حزب مثنى مرة واحدة:

ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (12) الكهف

ومن مفاهيم هذه الآية وجود حزبين مختلفين في الحق، كل منهما له قراءة علمية يستند إليها ويعلمها ولكنها خاطئة عند حزب وصائبة عند الآخر والواقع هو السبيل لبيان أي من الحزبين أصح من الآخر. وهذا الاختلاف في الحق تعهد

الله سبحانه ببيان الأصح منهما تطبيقاً. وفي هذا النوع من الاختلاف تعهد الله سبحانه بهداية الحزبين: فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (213)البقرة.

وفي استقراء الواقع المعاصر نجد الدول المتقدمة يتنافس فيها حزبان رئيسان يتسابقان في قيادة الدولة. كل منهما يقدم برنامجاً منسجماً مع أحكام الدستور مع اختلاف تكاملي في كيفية تحقيق مصالح الدولة داخلياً. ويتحد الحزبان لمواجهة أي خطر خارجي. وهذا ينسجم مع ما يشير إليه واقع النص القراءاني في الإحتكام إلى الله والرسول لحل مشاكل الخلاف التنازعي.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (59)النساء.

وإذا كان العالم اليوم يهتم كثيراً بدليل من الصانع ليعلم كيف تعمل الآلة وكيف يحل مشاكلها، فكيف الحال بالإنسان. أليس الإنسان أيضاً بحاجة إلى دليل من خالقه لحل مشاكله!

دليل الخلق ودليل المخلوق:

في الوقت الحاضر نجد العالمية التي تعزل كتاب الله سبحانه المسطور ترى الأمور بعين واحدة تنظر إلى كتاب الله المنظور الذي من خلاله تحكم المادة من خلال كتاب تعليمات وتحكم الإنسان من خلال الدستور. وبالمقابل فالإسلام قائم على دراسة كتابين: كتاب الله المنظور (السموات والأرض وما بينهما) [قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ] يونس/101 وكتاب الله المسطور المتمثل في كتاب الله "القرآن الكريم" [كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا] 58/الإسراء. وحيث أن المرجعية للكتابين واحدة: (فخالق السموات والأرض هو منزل الكتاب)، فالقراءتان لا يمكن أن تتعارضا في مفاهيمهما. وفي حالة التعارض الظاهري فالخطأ يكون في فهم محتويات أحد الكتابين. فالفهم البشري غير كامل وكثير الخطأ أما سُنَّة الله سبحانه

في تسيير العالمين سواء في الكتاب المنظور أو الكتاب المسطور فلا تتبدل ولا تتحول:
[... فَلَئِنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا(43)] فاطر

ولتوضيح ذلك نضرب مثالا في الخلاف وكيفية التعامل معه من منظور العالمية ومن منظور كتاب الله: من المعروف أن الصناعة يتم توجيهها من خلال المفاهيم الإنسانية. فإذا كانت هذه المفاهيم يصوغها بشر يكتبون الدستور (القانون) كانت الصياغة تخدم مصالح وأهواء مَنْ يصوغون القانون. فحين تكون السلطة بيد أصحاب رؤوس الأموال تكون مصالح العامل غالباً غائبة حين صياغة القانون. كما أن العامل كثيراً ما يحسد صاحب العمل على رزقه وامتيازاته ويحاول سلبه جزءاً منها بغير حق. وهذا التضارب في المصالح أدى إلى محاولة كل طرف الهيمنة على الطرف الآخر. فأصحاب رؤوس الأموال هم الأقدر على السيطرة على الحكم ووضع القوانين التي تخدم مصالحهم وهم يمثلون عنصر القوة power، وبالمقابل سارع العمال إلى إنشاء نقابات لحماية مصالحهم وهم يمثلون الجمهور people. ويلاحظ اليوم ظهور كثير من النزاعات حول حقوق أصحاب العمل والعمال كثيراً ما تؤدي إلى إضرابات العمال أو إفلاس العديد من المصانع نتيجة التخريب والإفساد. وهذه النزاعات تظهر بوضوح في كافة دول العالم وبالأخص في وقت الأزمات والركود الاقتصادي الذي يمكن اعتباره سُنّة من سنن التغيير فدوام الحال من المحال. والنقاش الدائر في ساحات العمل السياسي في الدول المتقدمة لمن ستكون الغلبة: للجمهور أم للنفوذ! (power versus people)..

لذلك هناك حاجة لصياغة قوانين تنسق العلاقة بين أصحاب العمل والعمال من وجهة نظر حيادية تُحفظ من خلالها حقوق الجميع. ولا عجب أن تقرر سورة العصر خسران جنس الإنسان إلا مَنْ علم الحق (ءامن ووصى به) والتزم بعمل الصالحات ووصى بالصبر في حال لم يأخذ حقه كاملاً. بل أن كلمات الدين والدِّين صيغت من الحروف نفسها باختلاف التشكيل في إشارة بيّنة أن الدين القويم هو الدين الذي يحفظ حقوق العالمين من العاملين. ولو استعان الإنسان بالنموذج الرباني الذي حدد فيه الخالق علاقته بالمخلوق واعتبره مرجعاً لحسم الخلاف (10/

الشورى) كما فعل في الخلق لوفر على نفسه العديد من التجارب المؤلمة والتي كلفت (ولا تزال تكلف) أصحاب العمل والعمال خسران الكثير على الصعيدين المادي والنفسي ولتمكن الإنسان من حل العديد من الخلافات بأقل الأضرار المادية والنفسية.

دليل الخلق يبين أن الحوار لحل النزاع يجب أن يستند إلى قواعد مشتركة أشار إليها كتاب الله سبحانه:

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (8) الحج
مما يشير إلى ثلاث قواعد مشتركة للجدال يجب أن يتفق عليها المتحاوران تتمثل بالعلم والهدى والكتاب المنير.

أهمية العلم في تشكيل الاختلاف التكاملي وحل الخلاف التنازعي:
يهدف البحث العلمي أساسا لحل المشاكل بالسعي إلى كشف القوانين التكاملية التي تحكم الآفاق بعالمها المادي والإنساني. كما يهدف أيضا إلى تشكيل الفكر اللازم لإدارة الحوار لحل الخلاف التنازعي. ويقوم العلم بصياغة ما سبق في نصوص (كتاب) تشكل المرجعية في بيان الحقيقة. وهو بذلك يمثل أساس مقومات حل الخلاف.

والفكر الإنساني في العلوم المادية والإنسانية يتطور ضمن ثلاث مراحل يستفيد منها كل البشر ولا يختلف عليها اثنان. هذه المراحل تتمثل بثلاث تطورات حل أي إشكال:

1. مرحلة استقرار الخلق من خلال تجميع الصفات الخلقية ووضع قوانين موحدة لها في ما يعرف بالحل المحكم (closed form solution).
2. تطوير آلية لقرن القوانين المختلفة ضمن قانون جامع تبيانا لكافة القوانين المحكمة.

3. مرحلة تبسيط القوانين (تيسيرها) ومنها القوانين الجامعة من خلال كود أو

دستور بحيث يسهل توصيلها (قراءتها) لأكبر قطاع ممكن من الناس في ما يعرف بالحل التشابهي analogy.

الكود أو الدستور يمثلان المرجعية لحل الخلافات التنازعية في البلدان المتقدمة. وهذه تمثل أساس حل التنازع في الفكر العلماني الذي ينظر بعين واحدة. أما في الفكر الإسلامي فيضيف إلى ما سبق عين أخرى لمعرفة الحقيقة. فالله سبحانه وهو الحق [ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ... (6) الحج] عرف مصدرين للحق: الكتاب المسطور [إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ (41/ الزمر، والكتاب المنظور:] خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (3) [التغابن. وقد تكرر ذكر الكتاب بنفس تكرر ذكر الحق (227 مرة) في كتاب الله في إشارة بيّنة إلى توحيد حقائق الخلق وحقائق الكتاب¹.

فمعرفة الحقيقة والعلم بها من أي من المصدرين يساعد على فهمها من المصدر الآخر. يؤكد ذلك قول الحق سبحانه في خواتيم سورة الإسراء: [قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (107) وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (108)] [الإسراء/17]

الآيات السابقة تدعونا للإيمان بالقرآن وتقرر أن الإيمان إما أن يكون به أو لا يكون مؤكدة أثر القرآن في الذين أوتوا العلم قبل الإطلاع عليه. فإن هؤلاء يتزكون بمجرد سماعهم تلاوة الآيات بسبب تحقق ما في هذه الآيات من حقائق ووعد عروفا قبل ذلك من الواقع. فعلى سبيل المثال لا الحصر وعد ربنا ووعد الحق [إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ... (21) /الكهف] في سورة فصلت (والتي أكد سبحانه في مطلعها تفصيل الكتاب لقوم يعلمون²):

[سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ] (53) فصلت

1- وردت كلمة كتاب معرفة ونكرة 230 مرة في كتاب الله سبحانه منها 3 مرات وردت بصيغة (أم الكتاب) فيتبقى 227 تكراراً يساوي تكرار ذكر الحق.

2- [حم (1) تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) كِتَابٌ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3)] فصلت

فهذا وعد عام بأن ما تستقرئه البشرية في الكتاب المنظور ستجده مصاغا في الكتاب المسطور وهو وعدٌ بجمع العلم والأيمان. والقرءان يقرن بين آيات الآفاق والأنفس بحيث يوحد بين السُنن التي تحكمهما. فكل علم في الآفاق له انعكاس في الأنفس والعكس صحيح فكل علم في الأنفس له انعكاس في الآفاق. وفي تأكيد خضوع الآفاق والأنفس للسُنن نفسها يقول الحق مذكراً بأنه خالق الأشياء وخالق السُنن التي تحكمها والتي لا تتبدل ولا تتحول:

[لَخَلْقُ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (57)]

[غافر

] فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا[43/فاطر

كل ما سبق يؤكد أن الكتاب المنظور يحكمه نظام واحد، هذا النظام عالمي الفكر متشابه القوانين. ولكن لا يمكن دراسته كوحدة واحدة. أي أننا مضطرون إلى تجزئته لاستقراء قوانين تحكم أجزائه أولاً ثم محاولة وضع نظام مشترك يجمع هذه القوانين جميعها في بوتقة واحدة¹. هذا التطور الذي سارت عليه البشرية (ولا تزال) أشعرَ الباحثين بالعجز الشديد المتنامي عن الإحاطة في عصر ثورة المعلومات. مما يجعل فرز المعلومات ومحاولة وضع نظام شامل يتصاعد صعوبةً مع الزمن. فكلما زاد علم الإنسان زاد إدراكه لعجزه وحاجته إلى من يعينه. خصوصاً حين يزداد حجم المشكلات بحيث يصبح ثمن أي تجارب إضافية باهظاً جداً. لهذا أنزل الله كتابه المسطور (القرءان) في الوقت المناسب حين كان الناس على شفا حفرة من النار فأنقذهم منها: [تَاللّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (63) وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (64)] [النحل

وفي مستهل هذا القرن ظهرت صعوبة هضم هذا الكم الهائل من التجارب

1- الفكر يتطور من الكل إلى الجزء ومن ثم إلى الكل في حلقات متصلة.

والاكتشافات البشرية وتنقيحها ممّا يُحْتَمّ وجود مرجع ربّاني علوي يساعد العالم على رؤية اكتشافاته من زاوية عالمية إنسانية. وهذا يقتضي ضرورة العودة إلى كتاب الله المسطور لتكوين رؤية إنسانية تساعدنا على هضم المعلومات وإصلاح البناء. وقد نبه الحق إلى ذلك في سورة النمل في سؤال استنكاري:

[أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَمْ لَهُمْ اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (63) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَمْ لَهُمْ اللَّهُ قُلُ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (64)] النمل

أهمية الهدى في تشكيل الاختلاف التكاملي ولحل الخلاف التنازعي:

من المهم جدا وضع آلية يتم من خلالها التأكد من إعطاء كل ذي حق حقه أي قرن العلم بالفعل (الفعل=الحكمة التطبيقية أو التزكية). هذه الآلية هي الهداية التي من خلالها يتم ترجمة المسطور ليصبح منظور في ما يعرف بالحكمة النظرية. والملفت للنظر أن الثورة الصناعية التي أنتجتها الدول العلمانية بسبب رؤيتها الاحادية كان لها آثار سلبية منها الفساد البيئي والإنهيار الخلقي.

فقد تم التخلص من المخلفات الصناعية في الكثير من الأحيان على حساب عوالم أخرى إنسانية أو مادية. فالدول الصناعية بعد إدراكها الآثار السلبية للمخلفات الصناعية (فالتخلص منها بإلقائها في المياه أدى إلى تلويث المياه والقضاء على الحياة البحرية فيها. وإلقاء المخلفات الصناعية في الأراضي أدى إلى فسادها وفساد الجو الهوائي المحيط بها) سعت إلى حل المشكلة بطريقتين:

الاولى تكاملية من خلال ما يسمى التربية البيئية في محاولة اتقاء ما أنتجته الصناعة في القرنين الماضيين من فساد بيئي. هذه التربية تحافظ على (حقوق كافة العوالم كأساس) و(توازن فيما بينها بحيث لا يطغى عالم على آخر كقاعدة) لتكون ثمرتها (بناء كافة العوالم بتوافق وانسجام (رحمة للعالمين)). فإذا كانت بحوث الآفاق تهدف إلى كشف السنن التي تحكم الخلق، فبحوث التربية تهدف إلى وضع قوانين الخلق لتكون منسجمة مع سنن الخلق.

الثانية تنازعية من خلال إلقاء المخلفات في دول أخرى (دول العالم الثالث) مما يشير إلى تدني المستوى الأخلاقي في التعامل مع الضعيف.

أهمية الكتاب المنير في تشكيل الإختلاف التكاملي ولحل الخلاف التنازعي:

لقد فشلت الحضارة التنويرية في الوصول إلى ما ترغب إليه من تزكية النفس لقصور نظرها وكثرة أخطائها واستنادها على القانون فقط مما أضعف آلية التكامل والربط بين العلم والتعلم والفعل وما نتج عن ذلك من انفصام في الشخصية تعاني منه شعوب الأرض غنيها وفقيرها والذي ينسى فيها الإنسان ذاته ويتناقض في لحظات ضعف لعدم وجود ذِكْرٍ دائم متجانس¹ يحفظه مما أدى إلى تكليف النفس ما لا تطيق فتصاعدت حدة الخلافات كما وكيفا مما ينذر بعواقب وخيمة لا يقدر على دفعها إلا الله سبحانه. وبالمقابل فشل العالم الإسلامي في حل اختلافاته حتى أصبح المثل الشائع: اتفق العرب على أن لا يتفقوا.

والمتدبر أحوال العالم اليوم يجد ارتفاع حدة الإختلاف التنازعي إلى حدود تنذر بعواقب وخيمة سواء على الصعيد العالمي أو الإقليمي أو القروي حتى أصبح الخلاف التنازعي على المستوى الأسري بين الرجل وامراته والآباء وأبنائهم وبين الأخوة إلى مستوى غير مألوف.

والأصل أن يراجع العالم بكل ما فيه من حضارات مرجعيته العلمية والتحكيمة (التعليمية) ليرى أين الخلل. فالواقع أي المخرجات يشير إلى نقص وخلل علمي وحكمي. أي خلل في المدخلات (العلم) وخلل في الحكمة النظرية أي في الحكم. وهذان السببان (العلماء والحكماء: المدخلات والمعالجة) يمثلان السببان الرئيسان لما يقع العالم فيه من خلاف تنازعي. وقد قيل في الأثر: إثنان إذا صلحا صلحا الناس

1- في الفرق بين شخصية إنسان يتلقى تعليماته من مصدر واحد وشخصية آخر يتلقى من مصادر متناقضة وربما متصارعة، يقول الله سبحانه:

[ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (29)]

الزمر/39

وإذا فسد فسد الناس العلماء والحكام. وهذا ما بينه الله عز وجل في كتابه المنزل:
وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (67) الأحزاب. فالسادة هم
العلماء والكبراء هم الحكام. وورود هذه الآية في سورة الأحزاب مدعاة للتفكر.

إذا كانت العلمانية ترى الكون برؤيا أحادية تعزل الدين فيها عن الحياة. وكانت الرؤيا الدينية التي يقودها السلمون تعالج قضاياها بعيون الموتى عاجزة عن الإتيان بجديد حتى أصبحت حضارة استهلاكية أكثر منها إنتاجية. فإن محاولة كل منهما إلغاء الأخرى باءت بالفشل. فكل منهما قدمت في مسيرة نهضة البشرية. وحتى يكون الخلاف تكامليا وليس تنازعا كما يريد الله سبحانه فلا بد أن يسود السلام (أي دين الإسلام الحق) الذي من خلاله تتكامل الخلافات لحل مشاكل البشرية.

فالدين الحق يبين أن مصدري الحق هما كتاب الله المنظور وكتابه المسطور. على الإنسان كشف حقائق الكتاب المنظور لفهم الكتاب المسطور والاحتكام إليه لحل الخلافات. وهذا يشبه ولله المثل الأعلى صناعة الإنسان الذي ينظر بعين إلى المادة المصنوعة وبالعين الأخرى إلى كتاب تعليمات الصانع Manual قبل وعند تشغيله أو صيانتها من أجل أن يحسن الانتفاع به أطول فترة ممكنة.

في الكتاب المنظور جدلية حل الخلاف التنازعي تقوم على العلم والتعلم (الهدى) والفعل (الكتاب المنير). الكتاب المنظور غير كاف لتحقيق النهضة والإبقاء عليها بما خلفه من صراعات وفساد بيئي وانهيار خُلقي لاعتماده التجربة والخطأ فقط وعدم وجود حدود يلتزم بها وتغليب الهوى والمصالح الشخصية على القيم الأخلاقية. ولكي نصلح مهمتنا في عمارة الأرض لا بد من قرن كتابي الله المنظور والمسطور (الخُلُق والخُلُق). هذا القرن يستدعي أولا عدم لبس الحق بالباطل ليكون الحق وقود الفكر. ويستدعي ثانياً إدراك أن نصوص الكتاب المسطور تزودنا بالنظرة الشمولية والتفصيلية لكل واقع، وتقدم لنا مرجعيةً قيميةً حيادية للاحتكام إليها في أي خلاف.

وقد عاب الحق سبحانه في قواعد الهدى (أي التعلم والتعليم) صنفان من الناس: الصنف الأول الذي لا يستند على العلم في الجدل:

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (3) الْحَجِّ
الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ

ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35) غافر
والصنف الثاني الذي لا يقرن بين العلم والعمل:
كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (3) الصف.
ومالم تحتكم البشرية إلى مرجعية ربانية عليا في العلم والإيمان فلا يمكن تحقيق
السلام وحل الخلافات التنازعية:
ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ
بَعِيدٍ (176) البقرة

مراجع البحث

1. "القرآن الكريم"
ثم كل من:
2. الواقع العلمي المنظور والحياتي المعاصر.
3. Power versus people in the digital age, Jeffrey Tucker, daily reckoning, 2012
4. Introduction to balance between the creation of Allah and human industry "the greatest challenge of education for the 21 century", Abdul Razzaq Touqan, IFEE2010
5. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة.
6. برنامج صخر "القرآن الكريم"، الإصدار السادس 6.31، شركة صخر لبرامج الحاسب (أحدى شركات مجموعة العالمية)، 1996-1991.
7. دور الحاسب الآلي في تطوير التعليم الهندسي، عبد الرزاق طوقان، مؤتمر التعليم الهندسي في فلسطين، جامعة بوليتيكنيك فلسطين-الخليل (الصفحات 193-203)، 2005.
8. المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت 1986.

